بدر شاكر السيّاب ومسيرته الشعرية

نستطيع أن نُقسّم حياة بدر وشعره إلى أربع مراحل:

١. المرحلة الأولى: الرومانسيّة من ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ (خمس سنوات).

٢. المرحلة الثانية: الواقعيّة من ١٩٤٩ ـ ١٩٥٥ (ست سنوات).

٣. المرحلة الثالثة: التموزيّة أو الواقعيّة الجديدة من ١٩٥٦–١٩٦٠ (أربع سنوات).

٤. المرحلة الرابعة: الذاتيّة من ١٩٦١ ـ ١٩٦٤ (ثلاث سنوات).

هذه المراحل متداخلة أحياناً:

١. المرحلة الرومانسيّة: مأساة بدر تكمن في وفاة أمّه وهو صغير، وزواج والده من امرأة ثانية، فكان يعيش في غربة. وقد ازداد الشعور بالغربة عنده عندما هجر قريته وذهب إلى المدينة. فكان الانتقال من الريف الذي أحبّ، إلى المدينة التي يمقت، بمثابة ضياع كبير ترك أثراً واضحاً في حياته.

إن الرومانسيّة التي عاشها بدر واستمدّها من واقعه، تَعرّف إليها كذلك من دراسته للشعر والأدب الإنكليزي ـ بيد أنّ يوسف الخال يقول في مقابلة معه، إنَّ معرفة بدر للإنكليزية كانت جدّ ضعيفة ـ وقد تأثر خاصة بشيلي وكيتس. ولكن بدر لم يقلّد أحداً، كما أنّه لم يستطع أن يسير تحت راية الرومانسيين العرب، ولم يستطع أن يحمل راية الرومانسيين الإنكليز.

٢ . المرحلة الواقعيّة: بعد أن انضمّ بدر إلى الحزب الشيوعي، لقي الاضطهاد والتشرّد بسبب ذلك وقد أثرت فيه هذه التجربة، بحيث تحوّل إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة، كان الموت، فيما مضى، موته وموت أمّه، أمّا الآن فقد أصبح الموت عامةً، موت الآخرين. كان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أمّا الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين. أدرك في هذه المرحلة أنّ فاجعته ليست فاجعته الخاصة، بل فاجعة شعبه.

نستطيع أن نتبين موقفه هذا من خلال قصائده: حفّار القبور ـ الأسلحة والأطفال ـ المومس العمياء. وهو كان في ذلك الوقت يكافح مع الحزب الشيوعي العراقي ضدّ الطغيان والمؤامرات الاستعماريّة ويطّلع على الثقافة الماركسية.

وفي هذه المرحلة أصبحت الأسطورة جزءاً من قصيدته. كما أعاد للقصيدة العربية ارتباطها بقضية الجماهير. وقصيدته « أنشودة المطر »، خير مثال على التزامه بقضية شعبه. في هذه القصيدة، تتجلّى الوحدة الكاملة بين الشاعر ووطنه، فجوعه وحرمانه وألمه وتمزّقه أصبح جوع العراق وحرمانه المرّ وتمزقه.

٣ـ المرحلة التموزيّة أو الأسطوريّة: تجاوز الشاعر الرومانسيّة وتجاوز الواقعيّة الاشتراكيّة، وانتقل إلى استخدام الأسطورة والرمز في شعره. كان الموت في المرحلة السابقة حادثة، وكان الجوع ظاهرة، وكان النضال رجولة. أمّا في هذه المرحلة فقد تحوّل الموت إلى أسطورة يتمثل بالمسيح وتموز.

وفي شِعر هذه المرحلة، يحاول الشاعر بعث قريته جيكور، التي تُصبح رمزاً للوطن، وفيها يبلغ أوجه الشعري، كما يظهر تأثره بالشاعر تي. س. اليوت T.S.Eliot (١٨٨٨ – ١٩٦٥).

٤ . المرحلة الذاتيّة: هي المرحلة الأخيرة في حياته، خيّم فيها شبح الموت على الشاعر وبات يعيش هاجس الموت، فيقول:

أَهكذا السنون تذهبُ

أَهكذا الحياة تنضبُ...؟

أُحسّ أنّني أَذوب، أَتعبُ،

أَموت كالشجرْ...

تصبح قصائده تنضح برائحة الموت، وهو ينتظر رصاصة الرحمة. وهو في صراعه مع الموت، وحيد لا يستطيع أن يساعده أحد. هل يستطيع أن يفلت من

قدره...؟ ! لقد أقعد الشاعر المرض، ولكنّه ظلّ ينظم الشِعر، فكأنه في سباقٍ مع الزمن، ليقول كل ما أراد أن يقوله قبل أن يسكته الموت، وفي ذلك يقول:

لأكتبَ قبل موتي، أو جنوني، أو ضمور يدي من الإعياءِ

خوالجَ كلِّ نفسي، ذكرياتي، كلَّ أَحلامي

وأوهامي

وأَسفحُ نفسيَ الثكلى على الورقِ

يقرأُها شقيٌّ بعدَ أَعوامٍ وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا

وآلى رغمَ وحش الداءِ والآلامِ والأرقِ

ورغمَ الفقرِ أَنْ يحيا.

obeikandl.com